على هامش النقد

كتب وشخصيات

للأســـتاذ سيد قطب

« عبقرية محمد » للعقاد

(تتمة ما نشر العدد الماضي)

للعقاد منطقه القوى فى كل ما يكتب ، فقد كان مهيأ أن يكون رياضياً لو لم يكن أديباً . وتلك علامة الطبع المستقيم . إلا أن منطقه فى كتاباته الأولى كان منطقاً وئيداً متمهلاً فيه أيد وصرامة . فأما فى « عبقرية محمد » فهو المنطق الجارف المتطلق المتحدر عن غير طريق من طرق الإقناع . مع وضاءة شفافة وإشعاع لطيف .

وفى الكتابة لمسات بارعة من المنطق العميق ، أدق مايصورها قول العوام « ضربة معلم ! » وهى كثيرة متناثرة فى الكتاب نكتفى منها ببعضها :

يقول قوم : إن الإسلام استهوى من أسلموا باللذائذ الحسية وبالتخويف من السيف . فما إن يعرض العقاد لهذا القول حتى يجهز عليه بلمسة تهتدى إلى موضع الإقناع ، أو « بضربة معلم » بارعة فى الصميم وإذا هو يقول فى موضع : « لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر » ويقول فى موضع آخر : « وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ويضع الطفاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة » فيدرك القارئ أنها الضربة المجهزة التى لا تدع مجالاً للتعقيب ، ويعلم كيف ينتفع المؤلف بالواقع المعروف على هذا الوجه الفريد .

ويعيب قوم على الإسلام اتجاهه إلى السيف ويسمونه بميسم الإكراه على الدين . فما إن يعرض العقاد لهذه الفرية حتى يجهز عليها فى لمسات متتالية أبرزها وأجدّها : « أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف « فكرة » يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع . ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف فى طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للاصغاء إليه . لأن السلطة تزال بالسلطة ولا غنى فى إخضاعها عن القوة . ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ... الخ » وعندئذ يبلغ العقاد بهذه اللمسة موضع الاقتناع من كل ذى طبع مستقيم

ويعيب بعض المتعصبين على النبى ـ عليه السلام ـ إقراره لقتل كعب بن الأشرف ، ولم يكن وقت قتله محارباً بالسيف ويشبهون هذا بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان . فما إن يعرض العقاد لهذا الاعتراض حتى يأخذه بضربة معلم فيقول : « الفارق عظيم بين الحالتين . لأن حروب الإسلام إنما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وإنما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الإلهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع فى هذا الميدان . فليس فى حالة سلم مع النبى إذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الإسلامية ، وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده . وإنما هو محارب فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ... الخ » فتبلغ هذه اللمسة موضع الاقتناع ممن يقتنعون !

ويتحدث قوم عن قسوة محمد لأنه راح ينظر القتلى فى ساحة الحرب بعد موقعة بدر ، فيضرب العقاد ضربته على هذا الحديث بمثل هذه القوة فى صفحات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ وخلاصتها « أن الرجل الذى يرى الدم فى المدنية العصرية غير الرجل الذى يرى الدم فى حروب البادية وفى حياة البادية على الإجمال . ونعنى بها حياة الرعاة التي تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم ، وحياة العبائل التى كانت تغزو وتغزى فى كثير من الأيام » ... وأنه كذلك « كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدراً لينظروا بعين النبى إلى عواقب هذه الوقعة التى أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة فى تاريخ الإسلام »

وتلوك ألسنة أن محمداً كانت تستهويه لذائذ الحس ويتحدثون في هذا عن تعدد الزوجات . فيعرض العقاد لهذا بضربة من ضربات المعلم حين يقول : « حب المرأة لا معابة فيه . هـذا هو سواء الفطرة لا مراء . وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططاً في طلابه ، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟ »

ثم يقول : « وأعجب شيء أن يقال عن النبي إنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها » ثم يقول : « ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه اللذات أن يجمع النبي إليه قسماً من الفتيات الأبكار اللائي اشتهرن بفتنة الجمال ... الخ » فينتهي الجدل عند المنصفين

وهكذا ... من مثل هذا المنطق المتطلق الوضيء السريع

* * *

وللعقاد في « عبقرية محمد » لفتات نفسية وفكرية جديدة ، هيأه لإدراكها انفساح في النفس وغنى في الشعور وحيوية في الطبع والضمير

من ذلك قياسه الجديد لعظمة محمد بمقدار ما استحقت من صداقات وبمقدار ما استجابت به لكل من هذه الصداقات : « تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم والحيلة والصراحة والأمية والاجتهاد وحنكة السن وحمية الشباب »

وقياسه لهذه العظمة في موضع آخر بما انفسحت له من العطف على الصغير والتقدير للعظيم ، لأن إنصاف العظيم جميل كانصاف الصغير

وقياسه لهذه العظمة في موضع ثالث بما انفسحت له من الجد والنهوض بعظائم الأمور مع تقبلها للفكاهة وعطفها على المتفكهين

وقياسه لهذه العظمة في موضع رابع بما انفسحت له من طبيعة العبادة وطبيعة التفكير وطبيعة التعبير الجميل وطبيعة العمل والحركة

ولولا الانفساح الكبير في طبيعة العقاد ما تهيأ لإدراك هذا الانفساح العظيم في مثله العليا في هذه النفس الرحيبة ، ولما التفت إليه هذا الالتفات وصوره هذا التصوير

ومن هذه اللفتات التي لا محيص من ذكرها — وإن ضاق المقام — التفاته إلى تسمية النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أدواته وأسلحته بأسماء الأعلام وما فيها من « معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ، كأن لها شخصية مقربة تميزها بين مثيلاتها كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب »

لقد تحدث المتحدثون عن عطف النبي وحدبه فذكروا حوادثه بالناس وبالحيوان . وممن كتبوا في ذلك حديثاً الدكتور هيكل في كتاب « حياة محمد » ثم تحدث العقاد فعرض بأسلوبه وطريقته مظاهر هذا العطف على الناس وعلى الحيوان ، ثم تجاوزه إلى هذه اللفتة المشرقة . والزيادة هنا ليست لقصد الزيادة ، ولا لمجرد الاستقراء ، ولكنها تزاد لنوع جديد من الدلالة لا يدرك ما فيه من طبيعة الألفة والمودة لأول وهلة ، ولا تدركه إلا بصيرة نافذة ونفس عطوف وحس شفيف

ويبلغ العقاد قمة اللفتات النفسية البارعة عند تحليله لعقوبة « الهجر في المضاجع » ويتجاوز الظواهر إلى حقيقة البواعث ومكامن الطبائع ، وتبدو الخبرة بطبيعة المرأة واليقظة لسيكولوجيتها الصميمة . ولن يتسع المجال هنا لعرض هذه اللفتة ، فهي هناك في الصفحات ما بين ٢١٤ ، ٢١٨ يرجع إليها من يريد

* * *

وفى « عبقرية محمد » بعد هذا كله قصائد إنسانية رفيعة ، وإشراقات نفسية وذهنية وضيئة

فأما القصائد فهي هناك فى مواضع متفرقة ، ولكنها تروع وترفرف فى ص ٢٦ حين يتحدث عن « عبد الله » فيقول : لكأنما كان بضعة من عالم الغيب أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبياً وهى لا تراه . ثم تعود ... الخ »

وحين يتحدث عن « مولد إبراهيم وموته » فى فصل « الأب » فيقول : « ولد الطفل الذى نظر إليه أبوه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ليكون أباً ويكون له أحفاد ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد ...

« ثم مات ذلك الطفل الصغير

« ومات ذلك الأمل الكبير »

ثم يمضى فى هذه القصيدة وفى تلك فتحس خفق قلب إنسانى عطوف على مصاب قلب إنسانى كبير وتلمح رفرفة نفس شفيفة على نفس لطيفة من وراء الآباد والقرون

وأما الإشراقات النفسية والذهنية فهى هناك فى مواضع متفرقة ، ولكنها تروع وتعجب عند الكلام على محمد « العابد » وهناك صفحات فى الإيمان والتفكير كانت خليقة أن يكتبها أحد « الواصلين » ! فلعلها محسوبة للعقاد عند جمع درجات الحساب فى الكتاب المكنون ، ولعله واصل بهذه الدرجات إلى عليين !!

* * *

وفى عبقرية محمد تقويم صحيح لطبيعة العبقرية ، ولطبائع كثير من المواهب والحقائق ، عنى فيها العقاد دائماً بتوكيد الباعث المكنون فى الضمير وإيثاره على ظواهر الأمور « فالعبقرية قيمة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق ، وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم » ... « ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح فى كل قلب من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات . فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها ، فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد ، أو بامتداد التخوم وراء التخوم . ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ودنا به مرتبة من الله ... »

* * *

وبعد فإن الجديد فى « عبقرية محمد » هو ضخامة الطاقة النفسية التى تستطيع أن تلم بنفس « محمد » هذا الإلمام . هذه الطاقة هى التى لم تتهيأ من قبل لأىّ ممن كتبوا عن « محمد » . وهى التى تشيع فى جو الكتاب كله ، ويتعذر لمسها فى نقط خاصة منه

« إن « نفس » محمد العظيمة هى التى يصورها هذا الكتاب أبرع تصوير ويجلوها أحسن جلاء . وتلك هى « عبقرية العقاد » فى « عبقرية محمد » على وجه الإجمال .

سيد قطب

صدرت الطبعة الثالثة من

ليالى الملاح التائه

ديوان الشاعر على محمود طه

طبعة أنيقة فاخرة على ورق ممتاز وغلاف مبتكر بالألوان الطبيعية لأول مرة .

ثمن النسخة ١٥ قرشا عدا مصاريف البريد

أرواح شاردة

دراسات فى الأدب الأوربى وتراجم وصور فنية غربية

طبعة محدودة على ورق بوفان النادر

الكتاب الذى نفدت الطبعتان

الأولى والثانية منه فى أقل من عام

ثمن النسخة ١٢ قرشا عدا مصاريف البريد

يطلب من جميع المكتبات العربية ومن مجلة الرسالة